بكل دول إفريقيا جنوب الصحراء، لا يتجاوز عدد أفراد الجالية المغربية الـ 10 آلاف شخص، لكنهم، كغيرهم من المهاجرين المغاربة في كل دول العالم، يعيشون هجرتهم، بالكثير من الأسئلة المعلقة، وكثير من المشاكل الباحثة عن حل.

في هذا الاتجاه، نظم مجلس الجالية المغربية بالخارج الملتقى الجهوي الثالث لـ «مغربيات من هنا وهناك» بدكار، تحت عنوان «مغربيات إفريقيا : مسارات وتحديات».

لقاء، طرح الكثير من الأسئلة، وحمل بعضا من مفاجآت مغربية قديمة... ومنحنا فرصة التعرف على شعب مرتبط بالمغرب إلى أبعد الحدود، وحملنا نحو ماض يستحق الكثير من النبش.

على هامش لقاء مغربيات من هنا وهناك بدكار

أوراق من بلاد السنغال

□ دكار: هشام روزاق
hichamroza@libero.it

أحدى جلسات لقاء مغربيات من هنا وهناك بدكار

أسوأ ما يمكن أن يحدث لك، حين تقرر التوجه نحو السنغال، لن يكون بالضرورة هو...

الخضوع لعملية تلقيح ضد الحمى الصفراء وغيرها، حتى وإن كنت ممن يرفضون نفسيا، أن تخترق «الإبر» أجسادهم...

ولن يكون هو التعرض لمختلف أنواع تعاليق «العلماء» الذين يفهمون في كل شيء ... كالعادة

أولئك الذين لم يزوروا السنغال من قبل، ولم يزوروا أية دولة إفريقية أو غير إفريقية... لكنهم... سينجزون لك في رمشة عين لائحة تعليمات غير قابلة للمناقشة.

سيحدثونك عن الأكل والشرب، أحكامه ونواقضه

عن تجنب اللمس والشم وما فوقه... وما تحته

عن الحرارة وضرورة شرب المياه...

سيحدثونك عن كل شيء، لدرجة الفزع، لدرجة الرعب...

لكن ذلك، ليس أسوأ ما يمكن أن يحدث.

نعمة الجواز الأخضر

... أن يكون جواز سفرك المغربي منتهي الصلاحية هو أسوأ ما يمكن أن يصادفك خلال كل لحظات التهييء لرحلة السنغال

والأسوأ من كل هذا، هو أن تستعمل في النهاية جواز سفر أوربيا، عوض المغربي...

حينها فقط، ستكتشف أن الجواز المغربي الأخضر له معنى آخر وله سلطة أخرى

... وله امتيازاته التي لا تعد، ولا تحصى.

بجواز السفر المغربي، يمكنك أن تتوجه إلى السنغال، بكامل البساطة واليسر

يمكنك أن تستقل أول طائرة تصادفها، وتتجه إلى دكار. هكذا بكل بساطة...

أما أن تستعمل جواز سفرك الأوربي، فإن الأمر سيصبح مختلفا...

مختلفا جدا.

ستجد نفسك مدعوا، بقوة القانون السيغالي، إلى الحصول على تأشيرة لدخول الأراضي السنغالية.

ستجد نفسك... مدعوا لإجراء عدة اتصالات وطرح عدد من الأسئلة، كي تفهم أخيرا أن جواز السفر الأوربي قد أصبح مشكلة، وأنك... لحل هذه المشكلة، ستكون مدعوا لطرق أبواب موقع إلكتروني سنغالي حكومي، وستكون مدعوا لملء استمارة طلب التأشيرة على ذات الموقع، وإلى دفع ما يزيد عن 50 أورو للحصول على التأشيرة، وأن تتعهد في ذات الاستمارة بعدم العمل داخل دولة السنغال، سواء بشكل شرعي أو بشكل غير قانوني.

في النهاية، ستحصل على وثيقة تؤكد أنك طلبت وأديت واجب الحصول على «فيزا» السنغال، وسيطلب منك في ذات الوثيقة، أن تتقدم بها لدى سلطات المطار في العاصمة دكار، لأن الوثيقة التي حصلت عليها ليست تأشيرة، ولكنها فقط وثيقة ستمكنك من الحصول على التأشيرة بالمطار، إن سارت الأمور على ما يرام...

وهذا بالضبط، هو ما... لن يحدث معي.

أركيولوجيا مغربية

... كل شيء أصبح جاهزا الآن، كي يقصد العبد الضعيف إلى ربه السنغال، وكي يحضر أشغال الملتقى الجهوي الثالث من «مغربيات من هنا وهناك» بدكار، والمنعقد تحت عنوان «مغربيات إفريقيا : مسارات وتحديات»، الذي ينظمه مجلس الجالية المغربية بالخارج.

كل شيء أصبح جاهزا، بما في ذلك تحميل آخر وثيقة بعثت لي عبر الإيميل، من طرف الموقع الحكومي السنغالي الذي ملأت فيه استمارة الحصول على الفيزا.

آخر وثيقة، تطلب مني الأمر، أن أعول على طيبة أحد موظفي مطار محمد الخامس، الذي مكنني بكل اللطف من طابعة مكنتني من الحصول على آخر ورقة تم بعثها بالإيميل، لحظات فقط قبل مباشرة إجراءات التسجيل.

... في النهاية، بدا كل شيء بسيطا، لكن شيئا ما سيغير هذا الانطباع.

التوجه إلى السنغال ياتي في إطار واضح. لقاء دوري بعنوان «مغربيات من هنا وهناك»، وفي مطار محمد الخامس، كنت أنتظر أن أرى وجوه مغربيات يعشن الهجرة وشما على الروح و... في الجسد. لكن...

في المغرب، تكتشف أحيانا أن بعض ما تظنه انتهى، ما يزال مصرا على التنفس.

أشخاص... لهم من القدرة النفسية والجسدية ما يجعلهم قادرين على الكلام في كل شيء.

في السياسة والإعلام والاقتصاد... وفي الهجرة أيضا.

كان المشهد ببساطة عبارة عن درس مغربي بسيط في الأركيولوجيا، بعض من آثار قديمة، تجدها أمامك حية ترزق، مستعدة لأخذ نفس الطائرة.

لحسن الحظ، في نفس هذه اللحظة، ستكشف الرحلة عن وجهها الآخر. وجهها الجميل

مغربيات ومغاربة، قادرون على إنتاج فكرة، على النقاش والحديث بلغات غير تلك التي اعتدناها من قبل. والأهم من كل هذا، اكتشاف جيل جديد من الصحافيين الذين لم يسبق لي قط الالتقاء بهم.

شباب في العشرينات من العمر، كان وجودهم كافيا كي تقلع تلك الطائرة، ببعض من وعود أجمل.

«حارك»... في بلاد السنغال

... بعد حوالي ثلاث ساعات، وصلنا إلى العاصمة دكار.

عوض الحرارة المفرطة التي حدثنا عنها الكثيرون، وجدنا في استقبالنا أمطارا غزيرة، لكن ـ مرة أخرى ـ لن يكون هذا أسوأ ما في الاستقبال.

مرة أخرى، سيحضر جواز السفر المغربي، عنوانا شامخا

جواز السفر الذي يتهمه المغاربة عادة بأنه «حدو طنجة»، ستظهر كراماته فجأة، وسيصبح الفرق بين حامل الجواز الأخضر، وحامل الجواز الأحمر، شاسعا وذا معنى

بطبيعة الحال، وكما في كل جغرافيات المقاربة الأمنية، يخضع الداخل إلى الأراضي السنغالية لمختلف أنواع الأسئلة المتخيلة والمفترضة.

سيسالونك عن الاسم والسن والمهنة، وبطبيعة الحال، كما هو الحال عندنا، لا يكفي فقط أن تكتب صحفي في خانة المهنة، عليك للدقة... أن تكتب اسم الجريدة التي تشتغل بها، قبل أن يسألوك عن الهدف من الزيارة ومدة البقاء في السنغال...

هنا، وبعد هذه الإجراءات، يستطيع حملة الجواز المغربي الأخضر أن يغادروا المطار بكل يسر، بينما سيظل العبد الضعيف واقفا في مقابلة مجموعة مكاتب صغيرة، في انتظار الحصول على التأشيرة، وإكمال إجراءات الدخول...

جزيرة غوري زمن العبيد

بين تفاصيل أسئلة الهجرة وأسئلة الفقر وما تبقى من لغات إفريقيا المستعصية، كان لسؤال الماضي والتاريخ بعض من مساحة في دكار.

في لحظة، قررنا، كمجموعة مجانين لا أقل ولا أكثر، أن نزور جزيرة «غوري» الشهيرة.

جزيرة غوري، المقابلة لسواحل دكار، كانت ببساطة، منذ القرن الخامس عشر، وإلى غاية القرن التاسع عشر، المركز التجاري الأكبر والأول لتجارة العبيد في الساحل الإفريقي.

جزيرة، وعلى امتداد أربعة قرون، عرفت المتاجرة باكثر من 6 ملايين شخص، واستعباد أطفال ونساء ورجال.

... الرحلة إلى الجزيرة كانت تحتاج لبعض من الملح السنغالي الخاص كالعادة، وهذا الملح لم يكن سوى «حسن»

حسن... هو الدليل الذي لم نفهم كثيرا كيف عين نفسه مرشدا سياحيا لنا، لكنه بالتأكيد فهم أنه يتعامل مع مجموعة مجانين، خصوصا حين تضم المجموعة، إضافة إلى العبد الضعيف، كلا من أحمد نجيم، وعدنان أحيزون وبسمة الهجري ومحمد الصباري.

حسن قادنا في رحلة خاطفة نحو واحدة من أهم ندوب الجسد الإفريقي.

في جزيرة غوري، وبالضبط، داخل بيت العبيد، فتحنا أعيننا على ماض بشع، على مفردات الموت والاتجار بالبشر

بيت العبيد... او كما تحمل تسمية أحد ممراته، هو طريق اللاعودة. هناك حيث البشر يفقد كل معاني إنسانيته، ليتحول فقط إلى سلعة إفريقية قابلة للبيع.

بيت العبيد شيد سنة 1780، ويضم مجموعة من «العنابر» لا تتجاوز مساحتها 6.76 مترا مربعا، منها عنبر النساء، وعنبر الأطفال وعنبر الفتيات، وعنبر الرجال، دون إغفال العنبر الأهم، وهو عنبر المتمردين الذي لا يتجاوز سقفه 0.8 متر.

أن تمشي داخل هذه العنابر... أن تمر من نفس الطرق، وتلج نفس العنابر والغرف التي استعبد فيها الناس، وقتلوا فيها، ورموا منها إلى البحر، كل ذلك، كان كافيا كي يمنح زيارة الجزيرة طعما مختلفا، لكن... مع حسن، سننتقل في رمشة عين، من زمن العبودية إلى داخل أسواق الجزيرة

... وفي أسواق الجزيرة، حتى إن لم تكن لديك أية رغبة في اقتناء أي شيء، فإنك ستفعل.

وهذا بالضبط، ماحدث.

مغربيات السنغال

انتهت تفاصيل رحلة، ظلت كثير من مفرداتها، في النهاية، غريبة، وماسكة بكثير من لغات الجمال.

لم يعد أمامنا الآن إلا أن نخرج من قواميسنا المعتادة، وأن نكتشف بعضا من انتماءاتنا الإفريقية. انتماء، ظل على مر عهود طويلة، معطلا... أو لنقل، غير مفعل، قبل أن نكتشف مؤخرا، أن للمعادلة الإفريقية، حسابات أخرى، ونتائج قابلة للتحقيق.

... قبل اكتشاف دكار، وقبل لقاء أهلها، كانت الجلسة الافتتاحية لأشغال الملتقى الجهوي الثالث من «مغربيات من هنا وهناك» بدكار فرصة لتأمل كثير من الأسئلة المرتبطة بعنوان الهجرة جنوب ـ جنوب.

المغرب اكتشف متأخرا ربما أنه لم يعد أرض عبور فقط، بالنسبة للمهاجرين الأفارقة... أنه أصبح بكل المعطيات المتوفرة، ارض هجرة واستقرار.

المغرب، اكتشف متأخرا أيضا أن إفريقيا أصبحت أيضا أرض هجرة بالنسبة للكثير من المغاربة، وأن مشاكل المهاجرين المغاربة، وخاصة المهاجرات المغربيات بإفريقيا، تستدعي الكثير من العمل والجهد، وهو ما انتبه له الكاتب العام لمجلس الجالية المغربية بالخارج، حين أشار في أول جلسات الملتقى إلى أن «الاستماع لهؤلاء النساء، في إطار المقاربة الجديدة للمغرب ضمن مجال الهجرة، سيمكن من وضع سياسة عمومية تستجيب لانتظاراتهن و يساهم في حل الإشكالات التي يعانين منها»

في السنغال، هناك عائلات وأسر مغربية مهاجرة، لا تتوفر على أية وثيقة تثبت علاقتها أو انتماءها للمغرب، إضافة إلى، حسب كاتب عام المجلس دائما، مشاكل أخرى كثيرة، من بينها، مشكل التعليم، والتنقل وما شابه.

... في السنغال، وحسب سفير المغرب بدكار، تطورت الهجرة المغربية بشكل لافت، وذلك أساسا، «بفعل انتشار الزواج المختلط وانخراط الكثير من المغاربة في عالم المقاولة، إضافة إلى إقبال الطلبة المغاربة على الدراسة في السنغال».

سفير المغرب في دكار، أشار بالأساس إلى الحضور اللافت للعنصر النسوي داخل الجالية المغربية بالسنغال، مقدما في ذلك مجموعة من الأرقام الدالة، من بينها:

«في سنة 1965 كان عدد النساء المسجلات 12 % ليرتفع سنة 2013 إلى 42 %. كما أن نسبة الطلبة المغاربة في السنغال من العنصر النسائي أعلى من العنصر الذكوري (53،82 % من النساء).

للانتظار هنا معنى مختلف.

انتظار أمام مكاتب ساكنة، وصفوف طويلة لا تتحرك.

لا تتحرك بالمرة... والأمر هنا ليس مجازا.

... بعد أكثر من 15 دقيقة، وحين أصبح أمر تدخين سيجارة أهم وأسبق من كل إجراءات سلطات المطار، سيفاجئني أحد المسؤولين هناك، بجواب عن سبب عدم تحرك الصفوف...

جواب بسيط، من رجل هادئ جدا

هادئ جدا، جدا...

قال ببساطة:

«سيدي، أرجو أن تتمتع بشيء من الصبر لبعض الوقت فقط، نحن الآن نواجه مشكلا تقنيا بسيطا، ومباشرة بعد حله، ستتمكنون من استكمال الإجراءات»

... أحيانا، يكون الإصرار على الفهم أمرا سيئا للغاية، وهو ما سأكتشفه في الحال، حين سألت عن طبيعة المشكل التقني

قال لي مخاطبي، بنفس الهدوء، ونفس البساطة

« لقد تعطلت الأنترنيت، ورغم كل جهودنا، لم ننجح في إعادتها للعمل، وبالتالي، فنحن الآن، غير قادرين على منح تاشيرات لأن كل أجهزة العمل هي خارج الخدمة «. هكذا، بكل بساطة.

... في النهاية، كان علينا فقط أن ننتظر

أن ننتظر، لدقائق طويلة، قبل أن يعود ذات المسؤول، ليخبرنا، بذات البساطة، وذات الهدوء، أن العطب مستمر، وأن أمر معالجته لا يبدو شيئا بسيطا، وأنه بناء عليه...

يمكننا أن نغادر المطار، دون استكمال الإجراءات

دون الحصول على الـ «فيزا»

ودون الحصول على أي شيء يثبت أننا دخلنا إلى السنغال بطريقة قانونية.

طلب منا فقط، بذات البساطة، وذات الهدوء... أن نعود في ما بعد، في اليوم الموالي، والدخول إلى محطة الوصول، للحصول على الفيزا.

بناء على ما تقدم، أستطيع اليوم أن أقول إنني بقيت في السنغال لمدة يومين كاملين في وضعية مهاجر غير شرعي.

كنت ببساطة «حارك في السنغال»

واستمرت «هجرتي غير الشرعية» هناك، لمدة يومين كاملين، قبل أن أعود إلى المطار، وأباشر عملية تأكيد الحصول على الفيزا...

وتلك حكاية أخرى.

حين كدت أمنح اسمي... لمولود سنغالي

... في الأثناء، خرجت من المطار، وأشعلت أول سيجارة ببلاد السنغال، قبل أن يفاجئني رجل قال إن اسمه «مختار»، بحكاية، كانت هي أول الغيث...

بمهنية عالية، وبتقنية غاية في الدقة، اقنعني مختار بأن المكان الذي كنت أدخن فيه، وكان بالهواء الطلق، لم يكن مناسبا، وطلب مني أن أتجه قليلا إلى الوراء، قبل أن يلتحق بي، ويبدأ حكايته الممتعة...

قال «مختار» إنه فهم أنني مغربي، وهذا ليس أمرا استثنائيا، مادام الرجل كان بالقرب من كل المغاربة الذين كانوا ينتظرون نقلهم في اتجاه الفندق.

مختار، بدأ حكايته بكثير من الهدوء والثقة في النفس

قال لي ببساطة، إنه...

علم من طرف أسرته، أنه أصبح أبا... لأول مرة في حياته، لحظات فقط قبل التعرف علي

وقال مختار، إن العادة داخل أسرته هي أن يمنح الأب اسم أول أجنبي يكلمه لأول ابن يولد له.

هل فهمتم الآن أين يريد مختار أن يصل؟

قبل أن أفكر حتى في الإجابة، وجدت مختار يمد يده لجيبه، ويخرج منه بضع أوراق وأحجبة، ويضعها بكامل الصرامة في يدي، قبل أن يصل إلى لب الموضوع في جملة.

قال مختار...

«جرت العادة عندنا، أن الذي نمنح اسمه للمولود، عليه أن يقدم هدية».

وببساطة أضاف: «ويفضل أن تكون الهدية، عبارة عن مبلغ مالي».

حين انتهى مختار من حكايته، أو لنقل، حين منحني حق الرد، كان جوابي كالتالي...

قلت لمختار:

«اسمع يا أخي، شخصيا، لا أريد أن أتحمل هكذا مسؤولية، عليك أن تعرف يا صديقي أن اسم هشام الذي أحمل هو اسم ملعون. وشخصيا، لا أريد لهذه اللعنة أن ترافق مولودك الجديد».

حينها فقط، استرجع مختار أوراقه وأحجبته التي كانت في يدي، وغادر، غادر ربما، وهو يكيل لي في سره كل أنواع اللعنات.

جانب من مدينة دكار

عن الأركيولوجيا... مرة أخرى

نعم... المفاجآت المغربية مستعصية على الفهم أحيانا.

السيدة نزهة الصقلي، وزيرة التنمية الاجتماعية والأسرة والتضامن السابقة، كانت حاضرة في هذا اللقاء السنغالي.

كانت حاضرة، وسيرت جلسة وتكلمت كثيرا.

تكلمت عن «مسار نضال المرأة المغربية في سبيل اكتساب حقوقها، الذي توجته بتبوئها مكانة بارزة في الدستور المغربي لسنة 2011».

لكن المهم، في كل كلامها بدكار، كان في النهاية، هو تلك الالتفاتة الدالة نحو الرباط، حول انتظار حكومة الرباط، وحول أمر الاستوزار بحكومة بنكيران الثانية.

الذين تابعوا كلام الصقلي، فهموا فقط، أو لنقل، فهموا بشكل واضح، أن الوزيرة السابقة تريد أن تصبح وزيرة لاحقة في حكومة بنكيران المنتظرة

فهموا ذلك... حين أكثرت الصقلي من الحديث عن دور المرأة وخطأ تعيين وزيرة واحدة، وضرورة تفادي الخطأ. فهموا أن جسد الصقلي كان في دكار، وأن عينها كانت تجول في كواليس الرباط.

الصقلي لم تكن وحدها...

كان هناك «أحمد حرزني» أيضا... في إفريقيا، كما في غيرها من جغرافيات العالم، هناك الكثيرون ينبهون بأشكال مختلفة، إلى تيمة الدعارة في علاقتها بمغربيات الفقر السحيق.

كثيرون يقاربون هذا السؤال بشكل أو بآخر

... كثيرون يدقون نواقيس الخطر ويتحدثون عن الحلول أو سبل المعالجة، لكن... كانت لأحمد حرزني مقاربة أخرى.

حرزني، قال ببساطة:

ظاهرة الدعارة ليست بذلك الحجم الذي يتم الترويج له»...

وقال إن: «خصوم المغرب هم من يروجون لذلك» ... وهو رأي على كل حال أقل ما يقال عنه أنه جاهز للنقاش.

دكار... تسوية الوضعية

عل هامش أسئلة الهجرة المؤنثة بإفريقيا، كانت دكار حاضرة بكثير من مفاجآتها.

أول المفاجآت، كانت حين اكتشفنا أن الفندق الذي نقيم فيه، (king fahd palace)، هذا الفندق الضخم والمترامي الأطراف، هو ببساطة، هدية من ملك السعودية الراحل للحكومة السنغالية.

... دكار مدينة مترامية على البحر، بمساحة تقدر بـ 550 كلمتر مربع، لكنها مع كل ذلك لا تشكل سوى 0.28 بالمائة من مساحة السنغال، في حين أنها تضم 25 بالمائة من مجموع السكان، يعيش بدكار أزيد من 3 ملايين نسمة، وتسيطر على 80 بالمائة من الأنشطة الإنتاجية والاقتصادية للبلاد

... في دكار، يكون للانتماء للمغرب طعم خاص.

الناس هناك يعرفون أشياء كثيرة عنا، مقابل شبه جهلنا بهم

الناس هناك، متعلقون دينيا بالمغرب، بزواياه وشيوخه، وفي أحيان كثيرة، كان يكفي أن تقول إنك مغربي، كي تضمن كثيرا من الامتياز، خصوصا حين يتعلق الأمر بمفاوضة الثمن مع صاحب سيارة أجرة، أو مع بائع تذكارات.

... بعد يومين كاملين من الوجود في ما يشبه حالة المهاجر غير الشرعي، قررت أخيرا أن أبحث عن تسوية وضعيتي، وقصدت صالة الوصول بمطار دكار.

بدون كثير تعقيدات، وجدت نفسي أمام الموظف المسؤول. موظف شاب، أراد بمعنى أو بآخر أن يجعلني لا أغادر مكتبه، قبل حصولي على التأشيرة... وحصوله على «ورقة تذكارية» يفضل أن تكون من الأوراق الأوربية الشهيرة...

بطبيعة الحال، لم يكن الأمر ليمر بهذه السهولة، ولكن... في النهاية، كان بعض من تغيير نبرة الكلام كافيا، كي يضع الموظف الشاب ختمه على التأشيرة، ويسلمني جواز السفر، دون كثير مماحكة.

تمثال حرية العبيد بجزيرة غوري